احمل كاميرا وتجول في بغداد، في شوارعها وأزقتها ، التقط صوراً وعلّقها في معرضك الشخصي ،إياك أنْ تطلعه على صديق قادم من أوروبا أو حتى من دول عربية مجاورة.
إذا كان الجو غائما وممطراً ستقع قدمك في أولى خطواتها بوحل الصباح، وتتناول فطورك بزحام شديد، تضيق بك "الكيا" فتقرر النزول ، الشوارع فوضوية،السيارات تقطع طريق السابلة،تهرب إلى الرصيف، يضايقك أصحاب البسطيات ، وأغراض المتاجر التي فاضت عن سعة بنائها. أخيرا تنحشر بين نهاية الرصيف وبداية الشارع ،تفوح روائح المجاري ،الممزوجة مع النفايات... وصلنا إلى التقاطع حيث تسعى جميع السيارات للخروج، أطفال يركضون وراء زجاج السيارات ، نساء بملابس رثة تستجدي عبر النوافذ ... المنظر يضطرك لرفع رأسك إلى الأعلى لتتخلص من مناظر النفايات والساحات الفارغة المليئة بالكلاب، والمنازل العشوائية ، حيث معسكر الرشيد الذي حلمنا به أن يكون مولاً أو مجمعاً سكنيا (كما سمعنا كثيرا) ، لكنه لا يزال يضم بيوتا مهدمة ، وأطفالا تعيش بين النفايات...
وإن مقالب الازبال التي تتطاير منها أعمدة الدخان القاتلة في كل مساء لها مجاميع متخصصة في البحث بين أكوامها لتخرج بقوت يومها ...فمشاهد "الدوارة او العتاكة" -كما يسمون- أصبحت منتشرة بين حاويات أمانة بغداد الزرقاء والحمراء التي وزعتها على الأحياء في محاولة لجمع النفايات ،التي عجزت عن حصرها، وأصبحت أتلالا في مناطق عدة. لم نتحدث بعد عن المستشفيات ،والمدارس ،والجامعات ، وباقي المؤسسات الحكومية في بغداد التي لم تعد تقوى على الصمود، فالرطوبة والتقادم كسرت ظهرها وأنحت، صارخة: ارحمونا.

هكذا ترك صدام بغداد!

صدام يقفز فوق المنصور ويبدّل تاريخ (يوم بغداد) لتعارضه مع ميلاده

المؤرخ شفيق مهدي يعرض عبر (المدى) وثائق تؤكد يوم بغداد في نيسان وليس في تشرين الثاني

في عام ١٩٩٦ اتخذت المحكمة قراراً ارتجالياً بتغيير يوم بغداد

□ بغداد/ وائل نعمة
□ عدسة/ أدهم يوسف

آخر صورة لبغداد

كانت آخر صورة علقت على وجه المعرض تتحدث عن حمار توسط شارعاً في العاصمة وهو يرفض التحرك ،والسيارات تقف وراءه...هذا بعض مما يحدث في بغداد بذكرى الاحتفال بيومها السنوي، حيث ذكرت أمانة بغداد بأنها ستقيم احتفالاً مركزياً كبيراً بمناسبة يوم بغداد على حدائق متنزه الزوراء، اليوم الثلاثاء، برعاية رئيس الوزراء نوري المالكي.
وذكرت دائرة العلاقات والإعلام في بيان صحفي تلقت المدى نسخة منه أن : " أمانة بغداد أكملت استعداداتها كافة للاحتفال المركزي بيوم بغداد في الخامس عشر من الشهر الجاري في متنزه الزوراء الذي يتضمن عدداً من الفعاليات الفنية والثقافية والفلكلورية وزراعة عشرات الأجنحة بأنواع كثيرة من الزهور على وفق تصاميم تحاكي تأريخ بغداد ومجدها التليد " .
وأضافت أن " احتفال هذا العام بيوم بغداد سيكون مميزاً لاسيما ما يتعلق بأجنحة الدوائر البلدية الخاصة بعرض الزهور والنباتات المتنوعة وكذلك المشاهد التراثية والفلكلورية عن قهوة عزاوي وشارع الرشيد والصور البغدادية القديمة وبعض محال المهن القديمة وغيرها من التفاصيل الأخرى" ، مبينة أن " أمانة بغداد عملت كل ما من شأنه إظهار هذه المناسبة بالمظهر اللائق والمتميز الذي يتناسب مع مكانة وأهمية العاصمة بغداد وعمقها التاريخي والحضاري وواقعها اليوم وهي تتطلع بكل إصرار لبناء مستقبلها الوضاء " .
وأشارت إلى أن " معظم المجالس والمنتديات الأدبية البغدادية كرست فعالياتها ونشاطاتها هذا الشهر للاحتفال بيوم بغداد السنوي التي اعتادت على إحيائه سنويا التي من بينها مجالس نادي الصيد العراقي والربيعي والمخزومي والصفار والجواهرية ومنتدى بغداد الثقافي وغيرها".

اختلاف على تحديد يوم العاصمة

من جانب آخر، يعترض المؤرخ العراقي شفيق مهدي على تاريخ الاحتفال بيوم بغداد. مؤكدا أن التاريخ الحقيقي هو العشرون من نيسان وليس الخامس عشر من تشرين الثاني، وقدم مهدي أدلته في هذه المسألة قائلا : وأنا أكتب عن بغداد منذ أكثر من ثلاثة عقود من الزمن، وثقت هذه الحقيقة في رسالتي للماجستير التي أعددتها عن الخلافة العباسية. تقول الحقيقة : اجمع المؤرخون على أن الخليفة ابو جعفر المنصور قد أسس مدينته المدورة التي اسماها مدينة السلام، يوم الثلاثاء، الفاتح من ربيع الثاني للعام ١٤٥ هـ الموافق للتاسع والعشرين من حزيران سنة ٧٦٢م، وفي يوم الاثنين الأول من محرم عام ١٤٦ هـ الموافق للحادي والعشرين من آذار سنة ٧٦٣ م،وبدأ الخليفة الانتقال إليها حيث تم نقل الدواوين وبيت المال من الكوفة، وفي يوم الأربعاء الأول من شهر صفر عام ١٤٦ هـ الموافق العشرين من نيسان سنة ٧٦٣ م، تم الانتهاء من نقل شؤون الخلافة إلى بغداد وبهذا يكون يوم بغداد هو العشرين من نيسان.
سنوات طويلة ظل العراق يحتفل رسمياً وشعبياً في يوم بغداد الحقيقي وكان الاحتفال بيوم بغداد في الحادي والعشرين من شهر نيسان احتفالاً بغدادياً رائعاً في كل مدن العراق، والاحتفال الرئيس طبعاً كان يقام في بغداد، بعد أن تهيئ له الأمانة كل مستلزمات النجاح حتى أنها تأخذ على عاتقها إصلاح السيارات القديمة التي تعود سنة صنعها إلى ستينات القرن الماضي فما دون، كما كانت توجه الدعوة إلى أصحاب (الربلات) للمساهمة في هذا الحفل الرائع، فضلاً عن مربعات ومقامات الجالغي البغدادي وعروض الأزياء البغدادية ، وغير ذلك . وكانت وسائل الإعلام المقروءة والمرئية والمسموعة والمنتديات الأدبية تسهم في يوم بغداد مساهمة فاعلة.
في عام ١٩٩٦ اتخذت المحكمة العراقية قرارا ارتجاليا بتغيير يوم بغداد من الحادي والعشرين من نيسان إلى الخامس عشر من تشرين الثاني، وكنت يومها (كما يقول مهدي) سكرتير تحرير جريدة المزمار التابعة لدار ثقافة الأطفال ، وكنت قد أنجزت العدد الخاص بيوم بغداد في شهر آذار وقبل دفع العدد إلى المطبعة استدعاني مدير عام دار ثقافة الأطفال الأسبق الدكتور (علي الياسري) وقال لي غير تاريخ يوم بغداد من الحادي والعشرين من نيسان إلى الخامس عشر من تشرين الثاني، فقد وردتنا تعليمات من الوزارة بذلك، هكذا وبكل بساطة!
وكنا نتمنى أن يعاد الاحتفال في يوم بغداد الحقيقي ، بعد أن تغير الحال ونظام الحكم ، ولكن أمانة بغداد ظلت ، تواصل الاحتفال في ذلك اليوم المزوّر . منذ احتلال بغداد وحتى لحظة كتابة هذا الموضوع وأنا أسعى بكل جهدي لإعادة يوم بغداد الحقيقي ، فنشرت قبل ثلاث سنوات موضوعا ضم صفحة كاملة عن يوم بغداد ، وكررت الشيء ذاته في السنة التالية وأرسلت رسالة إلى أمين بغداد عن طريق مدير عام العلاقات مع وثائق مهمة منها ملصق أصدرته الأمانة ذاتها، كما أرسلت رسائل أخرى ولم يجد الأمر نفعاً، وسمعت أن بعض مسؤولي الأمانة يقولون: إن في تاريخ يوم بغداد اختلاف . وعجباً وألف عجب أيمكن للمؤرخين العظام الذين راقبوا ودونوا بناء دار السلام منذ أن اختار أرضها الخليفة المنصور وحتى الانتقال إليها أن يقعوا في اختلاف؟ أولئك المؤرخون الذين حسبوا أعداد الفعلة (العمال) وعدد الأجر والخشب والمسامير وغير ذلك الذي استخدم في بناء بغداد، فهل يعقل أن يختلف المؤرخون الثقاة وفي زمن أبي جعفر المنصور في يوم بغداد . هاأنذا أضع دينا في رقابكم أن تعيدوا إلى بغداد يومها الحقيقي ، وتخلصونها من يومها المزور هذا الذي احتفلت أمانة بغداد قبل أيام به، وأتمنى ألا تكرر أمانة بغداد خطأها الذي وقعت فيه في الأعوام المقبلة والاعتراف بالخطأ فضيلة ، أعيدوا إلى بغداد الحبيبة يومها وليس هذا بالأمر الصعب، ولكنه تصحيح لتاريخ مزيف ، هل يمكننا أن نتجاهل منكراً نراه امامنا ونحن نقدر على تغييره بأيدينا؟ وأنا مضطر لتغييره بقلبي وهذا اضعف الإيمان!
ولا يعرف المؤرخ مهدي لماذا تصر أمانة بغداد على ارتكاب كبيرتها الكبرى بحق بغداد! فهي تعيد الاحتفال بيوم بغداد، الذي أراده لها صدام! مؤكدا : أنا لا أهدف من قولي هذا إلا إثبات حقيقة تاريخية، زورها النظام السابق، وصمت عنها أمانة بغداد أذنيها، على الرغم من أنني قد أسمعت صوتي لكل من يعنيه الأمر فيها!
ويحمل المؤرخ وثائق تثبت صحة كلامه ، وهي وثيقة جريدة (الجمهورية) ،في الصفحة الثامنة من عددها الصادر في ٢١/ ٤/ ١٩٩١، نشرت عدة موضوعات عن يوم بغداد، منها:
• (بغداد هي الدنيا) للدكتور عبد الرحمن حسين العزاوي.
• (بمناسبة يوم بغداد: شيء من تاريخ بغداد أم البلاد) لنعيم حسين.
بالإضافة إلى جريدة (القادسية)،في صفحتها الثانية عشرة، وفي عددها الصادر بتاريخ ٢٢/ ٤/ ١٩٨٩، نشرت هذا الموضوع:
• (بمناسبة يوم بغداد.. في التاريخ.. والتراث)، للدكتور محمد جاسم المشهداني.
فضلا عن الاتحاد العام للأدباء والكتاب ، الذي حرص هذا الاتحاد في أماسيه الأربعائية، على أن يكرس إحدى هذه الاماسي الى يوم بغداد في تاريخه الحقيقي،ومن هذه الاماسي، تلك الأمسية التي يعود تاريخها الى ١٣/ ٤/ ١٩٨٨، وفيها تحدث الدكتور (حسن فاضل زعين) عن بغداد، بدءاً من اسمها الذي كان يطلق على إحدى قرى العراق، وحتى الأعياد التي كانت تقام فيها.
وقد نشرت جريدة (الثورة) تقريراً عن هذه الأمسية، في تاريخ قريب لذلك التاريخ، تحت عنوان (لمناسبة يوم بغداد: بغداد.. في ذاكرة العصور)
دائرة الإعلام، وقامت (دائرة الإعلام) التابعة لوزارة الثقافة والإعلام، بإصدار كراس كبير ملون، غفل ذكر تاريخ طباعته، وقد طبع في (دار الحرية للطباعة)، وعنوانه (بغداد: بناها المنصور وأعزها صدام حسين) ،وجاء في الصفحة التاسعة منه: وتم انتقال الدواوين وبيت المال، وأصبحت بغداد مركز الدولة والخلافة رسمياً يوم الأربعاء الأول من شهر صفر سنة ١٤٦ هجرية الموافق ٢٠ نيسان سنة ٧٦٣م.
ووثيقة أخرى تؤكد أن أمانة بغداد ،اعتادت على إصدار مطبوعات وملصقات لمناسبة يوم بغداد، ومنها ذلك الملصق الكبير الذي أصدرته، وهي تحتفل بيوم بغداد في ٢١/ ٤/ ١٩٩٤م.
أما احدث الوثائق التاريخية التي تقول إن يوم بغداد (هو ٢٠ /٤) ، هو الاحتفال بيوم بغداد الذي أقامته الجامعة المستنصرية في كلية التربية الأساسية قسم التاريخ بتاريخ ٢٧/٤/٢٠١٠ وتحت شعار (ستبقى بغداد مركز إشعاع حضاري)،وأقيم الاحتفال برعاية أمين بغداد الدكتور صابر العيساوي وقد حضرته مجموعة من الأساتذة الأفاضل منهم المؤرخة الدكتورة الجليلة (نبيلة عبد المنعم) والأستاذ الدكتور (صباح الشيخلي) وعميد الكلية الأستاذ الدكتور (كاظم كريم رضا).

بغداد ...قبل الإسلام

من جانبها، تدعو أمانة بغداد إلى عدم التحسس من المواعيد التي حددها صدام ، لأنه اخذ كل أشهر السنة لأعياده وأعياد قاربه ،والمناسبات الحزبية التي يقيمها في كل عام.
الناطق باسم الأمانة حكيم عبد الزهرة أكد أنها تحتفل بيوم رمزي ، وليس تاريخا محددا بيوم وضع أبو جعفر المنصور حجر الأساس للمدينة المدورة . مشددا على أن مؤرخين كبار أمثال حسين علي محفوظ ، وحسين أمين ، والشيخ الحنفي ، كانوا قد سألوا عن رأيهم بهذا التاريخ ولم يبدوا أي اعتراض ، على الرغم من أنهم كانوا يحضرون الاحتفال في كل عام.
عبد الزهرة يشير الى ان الأمانة تركز على الاحتفال بالعاصمة أكثر من الإفراط بالحساسية من المواعيد التي وضعها النظام السابق للاحتفال بيوم بغداد، داعيا إلى نسيان النظام المقبور الذي كان يحتل أشهر السنة لمصلحة أعياده ومناسباته الحزبية .
وترى الأمانة أن يوم مناسب لاسيما وانه يتزامن في بداية فصل الشتاء حيث الجو يكون معتدلا وتزهر فيه الورود وتخضر الأشجار ، مشددة على أن بغداد وحسب رأي المؤرخين موجودة قبل العباسيين وقبل الإسلام .

الهموم أكبر من الاحتفال

بالمقابل، يقلل مواطنون من أهمية الاحتفال بيوم بغداد فيما تعاني العاصمة من شحة الماء والكهرباء وقلة الخدمات الأخرى . حيث يقول سمير كاظم موظف أمنيتي أن أرى بغداد نظيفة مرة أخرى كما كانت في سبعينات وثمانينيات القرن الماضي ، حيث كان جامعو القمامة ومنظفو الشوارع يستمرون في العمل ليلا ونهارا، وكانوا يطرقون بابنا لأنهم يريدون جمع النفايات قبل أن نرميها وكانت هناك مستودعات كبيرة في كل حي لتجميعها ، حيث يمكن للناس وضع القمامة فيها بدلا من رميها في الشارع مثل الآن.
ولكن أي جولة عبر العاصمة توضح أن الطريق أمام الجهات البلدية طويلا، ففي احياء كثيرة تتكدس أكوام القمامة المبعثرة وتصل إلى مستوى الخصر، وفي البياع ، حي الطبقة الوسطى ، تجتمع ١٠ أكوام من القمامة العشوائية في نقطة مساحتها صغيرة ، حيث يقول سرمد هادي صاحب محل في الشارع التجاري (لم أعد اهتم بجامعي القمامة إذا كانوا يأتون ام لا).
حتى في منطقة المسبح ، التي كانت مقرا للعديد من السفارات الأجنبية في العراق ، تتراكم فيها النفايات الآن أمام المنازل الأنيقة والحدائق.حيث يشير سامر عدنان أحد سكنة المنطقة الى انه لا يمكننا أن نجلس في الحديقة بسبب الذباب والبعوض ،حيث يسكن بجوار واحدة من أكبر أكوام القمامة.
على الرغم من الإحباط العام إلا أن المسؤولين في المدينة واثقون من أنه يمكن حل مشكلة القمامة. حيث يشير المتحدث باسم أمانة بغداد حكيم عبد الزهرة إلى أن البلديات تعمل مع قيادة عمليات بغداد، لإزالة القمامة ، كما أنها أبرمت عقودا مع شركات من تركيا والإمارات العربية المتحدة لإزالة القمامة وضغطها في شرق بغداد. وسوف توفر أيضا الشركات مقالب نفايات للسكان المحليين ، فضلا عن تنظيف الشوارع ومحطات المياه. وقال عبد الزهرة سيتم عقد اتفاقيات إضافية بحلول نهاية السنة مع شركات نمساوية مسؤولة عن معالجة القمامة. وقال إن المشاريع الجديدة حول هذا القطاع ستزداد في بغداد .
يشار إلى ان أمانة بغداد والجهات البلدية ترفع يوميا بما يقارب ٥٠٠ طن من القمامة ، بينما مدينة نيويورك تزيل تقريبا ٢٥،٠٠٠ طن من القمامة من المنازل والمحال التجارية في اليوم الواحد.
بالمقابل، أكد رئيس لجنة التخطيط الإستراتيجي في مجلس محافظة بغداد محمد الربيعي أن مسؤولية سوء الخدمات في العاصمة تقع على عاتق مجلس المحافظة والحكومة معاً. مضيفا أن مجلس محافظة بغداد ليس وحده مسؤولا عن الرقابة وإنما هناك مجالس محلية (استهلكت)، داعياً الحكومة إلى مساعدتنا وإسنادنا بوضع القوانين والأنظمة، إضافة الى إخراج العناصر غير فاعلة لأننا اليوم بحاجة إلى وجوه جديدة قيادية محلية تهتم بالخدمات.
وأوضح الربيعي: مجلس محافظة بغداد (محبط) بسبب عدم الاستجابة للتقارير التي ترفع للجهات المعنية، لذلك على الحكومة ومجلس النواب تفعيل دورنا لاننا مقيدون قانونياً والقانون الذي منح لنا هو حبر على ورق فقط.
ويخرج عشرات المواطنين في تظاهرات بشكل مستمر في كل يوم جمعة في ساحة التحرير وسط ا بغداد للمطالبة بتحسين الخدمات، ويشير المواطنون إلى أن التظاهرات تأتي تعبيرا عن سخط الشارع البغدادي من سوء الخدمات ، وستستمر إلى حين تحسين ملف الخدمات.